

الحياة العلمية في مصر والشام

٥٢١ - ٦٤٨ هـ (١١٢٧ - ١٢٥٠ م)

في سنة ٥٢١ هـ ، تولى عماد الدين زنكي بن آق سنقر إمارة الموصل من قبل السلطان السلجوقي الذي كانت له الكلمة العليا في البلاد التي تعترف بخلافة العباسيين . وبدأت بولاية زنكي على الموصل حركة إحياء سياسي واجتماعي وثقافي في مناطق الجزيرة العراقية والشام التي كانت حتى ذلك التاريخ مفككة الأوصال مشتتة الكلمة . ثم لم تلبث هذه الحركة الإحيائية أن انتقلت إلى مصر عقب سقوط الدولة الفاطمية ، سنة ٥٦٤ هـ ، أمام جيوش السلطان نور الدين محمود بن زنكي . واستمرت هذه الحركة على نشاطها في البلدين المتحددين منذ ذلك التاريخ حتى سقوط الدولة الأيوبية في مصر ، سنة ٦٤٨ هـ ، لتخلفها دولة المماليك البحرية التي بدأت عهداً جديداً من الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية يختلف في بعض مظاهره عن العصر الأيوبي ويتفق معه في بعض آخر .

ومن ثم كان تحديد بحثنا عن الحياة العلمية في مصر والشام مرتبطاً بهذين التاريخين : ٥٢١ - ٦٤٨ هـ ، أي شاملاً للعصر الذي يبدأ بولاية عماد الدين زنكي إمارة الموصل وينتهي بسقوط الدولة الأيوبية في مصر .

* * *

وقد شهدت هذه الحقبة التي نتحدث عنها تغيرات رئيسية هامة ، كان من

بينها سلسلة الحروب التي دارت رحاها - في معظم مراحلها - بمصر والشام، وهي الحروب التي عرفت في التاريخ باسم الحروب الصليبية . كما كان منها تلك الانقلابات السياسية والثقافية التي شهدتها هاتان المنطقتان نتيجة لتدهور سلطان الفاطميين الاسماعيليين وانتعاش النفوذ السنّي في ظل حكم السلاجقة وأتباعهم بالشام ، ثم في ظل الأيوبيين في مصر والشام جميعاً .

وقد جاهد زنكي منذ تولى شئون الموصل لوضع حد للخلافات السياسية الإقطاعية التي مزقت شمل الشام والجزيرة العراقية ، فنجح بحروبه المتتالية في إيجاد نوع من الاتحاد شمل جزءاً كبيراً من هذه البلاد وأخضعها لسلطانه . ثم جاء بعده ابنه نور الدين محمود ، ٥٤١ هـ ، فبدأ من حيث انتهى أبوه ، ونجح في توحيد الشام والجزيرة جميعاً باستثناء المناطق التي كانت في أيدي الصليبيين^(١) ، ثم مدّ نفوذه إلى مصر حيث نجح قائده أسد الدين شيركوه ، عم صلاح الدين الأيوبي ، بعد محاولات ثلاث ، في إخضاعها لسلطانه . وفي مصر ، بعد وفاة شيركوه ، ظهر صلاح الدين وزيراً للعاضد الخليفة الفاطمي الشيعي ، وقائداً لجيوش صاحب الشام نور الدين محمود السلطان السنّي . ثم لم تلبث الخلافة الفاطمية أن انهارت ، فزال بانهارها آخر ظل للنشاط الاسماعيلي عن مصر ، واصطبغت البلاد منذئذ بالصبغة السنّية في مذهبها الدين وفي نظامها السياسي .

لكن الوحدة التي نجح هؤلاء الرجال الثلاثة في تحقيقها بين مصر والشام لم تسلم من الأخطار التي تهددتها في شكل الحملات الصليبية المتتالية لتأكيد سلطان أوربا على الأراضي المقدسة ، وللقضاء على قوة مصر التي حملت العبء الأكبر في مقاومة هذه الحملات الصليبية . وكان لاتحاد القوى في مصر

(١) كانت إمارة الموصل وما تبعها خاضعة لسيف الدين غازي بن زنكي ولكن سياسته العامة ، وسياسة من جاء بعده ، كانت مختلفة تمام الانفاق مع سياسة نور الدين ومساوئة معها .

والشام ، برغم بعض المنازعات الداخلية ، فضل كبير في فشل هذه الحملات التي لم تحقق من أهدافها ، عندئذ ، إلا القليل .

* * *

وفي حديثنا عن الحياة العلمية في هذه الحقبة يحسن أن نبدأ بما ذكره ابن جبير في « الرحلة » من أنه رأى في دمشق وحدها ، أثناء زيارته لها ، نحو عشرين مدرسة ، كما رأى في حلب خمس مدارس^(١) . ويذكر ابن الشحنة في كتابه « الدر المنتخب » من مدارس حلب عدداً يتجاوز الخمسين ، أنشئت جميعاً بين سنتي ٥١٦ ، ٦٦٥ ؛ ودمشق وحلب العاصمتان الرئيسيتان للشام في هذه الحقبة من التاريخ . وهذان المثلان يكفيان في الدلالة على مدى الاهتمام بالإحياء العلمي في هذا العصر الذي نتحدث عنه ، غير أنه يحسن أن نضيف إلى هذا أن عدداً كبيراً من الزوايا والمساجد كان يؤدي وظيفة المدرسة في هذا العصر على نطاق واسع أيضاً^(٢) .

وقد أنشئت أول مدرسة في دمشق في عهد الأتابك « طغتكين » الذي تولى إمارتها سنة ٤٩٧ هـ . لكن دمشق لم تفر بالشهرة الفاتكة التي اكتسبتها في ميدان النشاط العلمي إلا منذ عهد السلطان نور الدين محمود الذي اتخذها عاصمة للملكة سنة ٥٤٩ هـ . ولعل السر في هذا أن المدة التي انقضت بين تأسيس أول مدرسة بدمشق واستيلاء نور الدين عليها ، حفلت بالنزاع المتصل بين أمراء المسلمين بالشام ، أو بينهم وبين الفرنج والصليبيين ؛ وهو النزاع المرير

(١) قام ابن جبير برحلات ثلاث من الأندلس إلى المشرق : الأولى سنة ٥٧٨ هـ ، وهي التي كتب بعدها « الرحلة » ، والثانية بين سنتي ٥٨٥ ، ٥٨٧ هـ ، وفي الثالثة استقر بالإسكندرية حيث توفي سنة ٦١٤ هـ .

(٢) يقول ابن جبير في « الرحلة » : « وبالجامع المكرم (يعني بدمشق) عدة زوايا يحضنها الطلبة للسخ والدرس والافراد عن ازدحام الناس » . (الرحلة : ٢٦٦) ويقول : « ودهليز الباب الشمالي فيه زوايا على مصاطب م عاشر لملى الصبيان » . (الرحلة : ٢٧١) . ويقول : « وفيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمدرسين فيها اجراء واسع » . (الرحلة : ٢٧٣) .

الذى لم يدع فرصة لأى إصلاح علمى أو اجتماعى ، رغم توفر النية لدى بعض الأمراء .

والمدرسة كمرکز للنشاط العلمى السنى تدين بوجودها لأسرة السلاجقة . ومن المسلم به أن المدرسة ظهرت فى صور مختلفة قبل ظهور السلاجقة بزمن فى منطقة خراسان ، وفى غيرها من الأقاليم الشرقية بصفة عامة (١) ، إلا أن أول من أنشأ المدرسة بنظامها الكامل الذى عرفت به فى بلاد العراق والشام ومصر كان نظام الملك وزير السلاجقة المتوفى سنة ٤٨٥ ، وهو مؤسس المدارس النظامية المعروفة (٢) . وقد ذكرنا من قبل أن أول مدرسة أنشئت فى دمشق سنة ٤٩٧ (٣) .

* * *

ولم يكن ظهور المدارس فى مصر والشام بهذه الكثرة الملحوظة فى العصر الذى تحدث عنه إلا مظهراً من مظاهر رد الفعل لتدهور الصحابة الشيعة الاسماعيلية التى فقدت سيطرتها أولاً فى بلاد الشام ، لانحسار سلطة الفاطميين عنها ، ثم انهارت أخيراً فى مصر بعد سقوط خلافتها الفاطمية أمام جيوش الفتح النورى ، ثم ، من بعده ، بجهود صلاح الدين . والاستعراض التفصيلى للمواد التى كانت تدرس فى هذه المدارس خير دليل على صحة هذه الدعوى التى ذهبنا إليها .

(١) يقول المقرئى : « لم تكن المدارس معروفة زمن الصحابة ولا التابعين ، وإنما حدث عملها بمد الأربمانية ، فأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة أهل نيسابور ، فبنيت بها البيهقية » . المخطوط : ٢ : ٣٦٣ .

(٢) يقول المقرئى : « وأول مدرسة قرر بها لعلماء معالم من النظامية ، وقد تم بناؤها سنة ٤٥٩ » . المخطوط : ٢ : ٣٦٣ .

(٣) وبليت أول مدرسة بحلب سنة ٥١٦ هـ ، وبنى حاكمها تاريخ سنة ٥١٧ ، وتسمى بالزجاجية . بنامها بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب عندما ، ولما أراد بناءها لم يمكنه أهلها أول الأمر لأن القاطن عابهم حينئذ كان التشيع . انظر الور المتنضب لابن الشحنة .

ذلك أن مواد الدراسة في هذه الحقبة كانت تختلف من مدرسة إلى أخرى تبعاً لاختلاف أعمار الطلاب من جهة ولاختلاف المذاهب التي أنشئت من أجلها ، ولكنها مع هذا كانت تتفق جميعاً في أمر واحد هو تجنب الدراسة الفلسفية والمنطقية . ولعل ذلك يرجع إلى أن المذهب الشيعيّ الاسماعيليّ بصفة خاصة كان يعتمد في دعايته ، السرية والعلنية ، إلى جانب العاطفة الروحية ، على الجدل المنطقي وعلى الأسس الفلسفية والرياضية إلى حد كبير . وبهذا كانت المواد التي تدرس في معظم مدارس الشام ومصر في العصر الذي تعرض له تتركز حول القرآن والحديث والمذاهب الفقهية الرئيسية الأربعة . وكان اختلاف هذه المذاهب في بعض المسائل الفرعية سبباً في تجميع هذه المسائل الخلافية في دراسات خاصة ، عرفت باسم « علم الخلاف » ، وقد برع فيها كثير من علماء هذا العصر وبخاصة من علماء الشافعية .

وفي « رحلة » ابن جبير ، وفي غيرها ، نجد حديثاً عن المدارس التي أنشئت للصبيان خاصة ، ويسمى ابن جبير أحياناً بالمكاتب . وهدف هذه المدارس أن يحفظ بها الصبيان القرآن الكريم ، تلقيناً ، أما القراءة والكتابة فكانت تعلم للصبيان في دراسة الشعر والأدب التي كانت تعتبر في هذه المرحلة مواد مساعدة ؛ وإنما كان القرآن يعلم تلقيناً صيانة له عن التحريف ، والتصحيف . وكانت المساجد ، كما يقول ابن جبير ، مكاناً آخر لتعليم القرآن لهؤلاء الصبيان الذين كانوا يفدون إلى المساجد لهذا الغرض . وكان هؤلاء التلاميذ ، ولقرئتهم مرتبات خاصة يستحقونها في مقابل تدريس القرآن ودراسته (١) .

(١) يقول ابن جبير : « وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحاً يستند كل إنسان منهم إلى سارية ويجلس أمامه صبي يلقيه القرآن . وللصبيان على قراءتهم جارية معلومة . وأهل القدرة من الآباء يزهون أبناءهم عن أخذها » . ويقول « وتعليم القرآن للصبيان تلقين ويظهرون الخط في الأشعار ونحوها » . الرحلة : ٢٧٣ .

وكانت دراسة القراءات المختلفة للقرآن تأتي في المرحلة التالية من الأهمية بالنسبة لحفظه حتى إن كثيراً من العلماء اشتهروا بين رجال هذا العصر بإتقانهم لها . ومن هؤلاء علم الدين السخاوى (المتوفى سنة ٦٤٣) الذى اشتهر بها حتى كان الناس يتجمعون حوله ليقروا القرآن عليه بقراءته فى المسجد وفى الطريق بينه وبين منزله بسفح جبل قاسيون ، فلا يصح لأحد منهم نوبة إلا بعد أمد طويل^(١) . وفى كتب التراجم التى تتحدث عن الشخصيات العلمية لهذا العصر كثير من أمثال الشيخ السخاوى .

ويجىء بعد القرآن وقراءاته علم الحديث ورجاله . وقد ظهر هذا العلم بمؤسسات خاصة أخذ كل منها اسم « دار الحديث » تميزا لها من بقية المدارس . وأول دار للحديث بدمشق أسست أيام السلطان نور الدين محمود ثم تبع من جاء بعده مثاله ، ومن هؤلاء صلاح الدين الأيوبي ، والملك الكامل محمد ، والملك الأشرف موسى والملك الصالح نجم الدين أيوب .

وبلى هاتين المادتين الرئيسيتين فى الأهمية الدراسات الفقهية بمذاهبها الأربعة الرئيسية . أما قواعد اللغة العربية والدراسات الأدبية والتاريخية فلم تكن إلا من المواد المساعدة التى تمهد للدراسات الدينية العميقة التى تتمثل فى دراسة القرآن وقراءاته والحديث ورجاله ثم فى دراسة الفقه ومسائل الخلاف .

ومن بين المذاهب الفقهية الأربعة يحتل مذهب الشافعى مكان الصدارة ، وبخاصة فى عصر الأيوبيين وذلك رغم أن نور الدين محموداً ، الذى بدأ الاهتمام الجدى بالنشاط العلمى السنى ، كان يعتنق مذهب الحنفية . وفى تتبعنا للنشاط العلمى الذى اتخذ طريقه من الشام إلى مصر فى أواخر عهد نور الدين نجده يصطبغ بالصبغة الشافعية ، فقد عزل صلاح الدين قضاة الشيعة بعد سقوط دولة الفاطميين مباشرة وعين الشيخ صدر الدين عبد الله بن درباس

(١) وفیات الأعيان : ١ : ٤٣٤ - ٤٣٥ .

الشافعي في منصب قاضي القضاة ، وعين هذا الشيخ بدوره نوابه في الأقسام الإدارية بمصر من رجال الفقه الشافعي (١) . ثم لم يلبث صلاح الدين أن اتخذ خطوة أخرى في هذا الصدد عندما أسس مدرسة للشافعية بجوار قبة الإمام الشافعي وأتبعها بأخوات لها في جهات أخرى . ومن ثم لم يكن في الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل (٢) .

ومنذ بدأ الاهتمام في الشام بإنشاء المدارس في عهد نور الدين محمود أقبل أصحابه وأمراء جيشه على التنافس في إنشائها ، وتابعهم على ذلك أصحاب الشام ومصر ، ومن اتصل بهم ، في عصر الدولة الأيوبية . وكانت هذه المدارس موزعة بين المذاهب الأربعة الرئيسية وإن اختلف الإقبال عليها من مذهب إلى آخر ، فكان مذهب الشافعي في مرتبة الصدارة ، يليه مذهب أبي حنيفة ، ثم المذهب المالكي ، بينما كان لمذهب ابن حنبل المكانة الأخيرة إذ لم يقبل كثير من السلاطين أو الأمراء أو العلماء على تشجيعه بدرجة كافية ، بل كان بعضهم يقاوم انتشاره ونشاط علمائه ويؤيد أتباع المدرسة الشافعية في معاداتهم له . ولعل السبب في هذا أن رجال المذهب الحنبلي كانوا يحاولون في هذه الفترة النظرة إلى المسائل الشرعية نظرة تحليلية تعليلية ويردون شبهات المناظرين من المناطق بحجج جدلية مشابهة تمسها معهم في أسلوب مناظرتهم ، بينما كان الشافعية ، بزعامة إمامهم الأكبر ابن عساكر المحدث ، يلجئون إلى الحديث دائما ويشككون في عقيدة الخنابلة وفي مقاصدهم .

ولعل السر في تقدم الشافعية على الحنفية كذلك أن نور الدين الحنبلي المذهب وقف من المذاهب الأربعة موقفا محايدا وشجع العلماء جميعا على مواصلة جهودهم العلمية ، ووجه كثيرا من جهده وماله لدراسة الحديث

(١) بقول المقرئ : « فلم يستتب عنه في أقاليم مصر إلا من كان شافعي المذهب ، فظاهر الناس من حيثئذ بمذهب الشافعي ومالك » . المخطوط : ٢ : ٣٤٣ .

(٢) المخطوط : ٢ : ٣٤٣ .

خاصة فأنشأ له مدرسة خاصة عرفت باسم دار الحديث النورية، كما قلم ابن عساكر المحدث الشافعي الكبير في مجلسه على سائر الأئمة والعلماء حتى كان ابن عساكر يضرب المثل بجلال مجلس نور الدين ووقاره وتعظيمه للعلم والعلماء . ثم جاء بعد نور الدين خلفاؤه الذين حكموا مصر والشام باسم الأئمة الأيوبيين ومعظمهم من الشافعية المتعصين لمذهبهم ؛ وفي مقدمة هؤلاء صلاح الدين الأيوبي ، وأخوه الملك العادل سيف الدين ، ثم الملك الكامل موسى بن الملك العادل . وبما يدل على موقف الأيوبيين من الشافعية تأييدا ومناصرة أن أحد علماء الحنفية كتب كتابا في الفقه سماه . « النوري في شرح القدوري » ، وتعرض فيه لبعض رجال الحديث من الشافعية ، وبلغ خبر الكتاب صلاح الدين فاستدعى مؤلفه يوم الجمعة في مسجد دمشق وطلب منه كتابه وأمر . بغسله ، في مiazza المسجد^(١) . ودليل آخر أن المعظم عيسى صاحب دمشق ، ابن الملك العادل ، اعتنق المذهب الحنفي واهتم بدراسته والتخصص فيه ، فبلغ أمره والده الذي حاول أن يسترده إلى مذهب الشافعي ، فغضب المعظم وكلم أباه ومن حضر مجلسه من العلماء بلمجة يتحدث أبو المحاسن ، صاحب النجوم الزاهرة ، عنها بأن السكوت عن ذكرها أليق^(٢) . وذكر مؤلف « شفاء القلوب » ، أن مما قاله المعظم لأبيه حيثئذ . « أما ترضون أن يكون فيكم واحد مسلم » .

وبما يدل على أن مذهب ابن جنبل كان لا يجد تعصيدا كافيا من الحكوميين أو من العلماء أن أبا شامة مدح أستاذه زين الأمانة ابن عساكر بأنه . كان لا يمرّ قرب صفوف الحنابلة حتى لا يأتوا بسبهم له . . ويعمل أبو شامة هذا صراحة بالبغض العنيف الذي يكنه الحنابلة للشافعية ذلك البغض الذي كان متبادلا بين الفريقين ، حتى إن زكي الدين بن رواحة أنشأ

(١) مؤلف هذا الكتاب الشيخ ابن أبي العيش . انظر البستان الجامع لتواريخ الزمالة

في حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

(٢) النجوم الزاهرة : ٦ : ٢١١ .

مدرستين في حلب ودمشق وأباح الدراسة فيهما لكل من رغب الاستزادة في العلم على «ألا» يدخلهما مسيحي أو يهودى أو خنثى^(٣) .

ولكن سيطرة الشافعية والحنفية على الحياة العلمية لم يمنعنا تطور مذهبي المالكية والحنبلية ، بل شجعتهما هذه السيطرة على المناضلة لمحاولة التقدم والرتقى ، فنجحنا إلى حد كبير ، وأمكنهما بذلك تقنين بعض قواعد الفقه الإسلامى المتعلقة بنظم الحكم السياسية فيما بعد ، وبخاصة جهود الفقيه والمصلح الاجتماعى الإمام ابن تيمية^(٤) .

وكان لدراسة الطب فى هذه المرحلة نصيب ملحوظ فكان الطلاب ينقلون دروسه النظرية ويقومون بتمريناتهم العملية فى البيمارستانات حيث كان المرضى يعالجون من غير أجر وكان البيمارستان النورى بدمشق فى مقدمة هذه المؤسسات الصحية العلمية نشاطا فى هذه الحقبة ، ومن بعده بيمارستان صرخد ، ثم بيمارستان القاهرة . ومن أظهر أطباء هذا العصر ابن أبى أصيبعة الذى تلقى دراسته العلمية فى صرخد والقاهرة وترك كتابا خاصا فى طبقات الأطباء سماه «عيون الأنباء» .

* * *

ويمكن أن نقول إن هذا النشاط العلمى يدين بوجوده لعوامل ثلاثة متعاونة ، أولها كثرة المدارس وتنوعها ، وثانيها الهيئـة الحاكمة من سلاطين وأمراء ، وأتباع للأمراء أو السلاطين ، وسيدات الأسر الحاكمة ، وثالثها جماعة العلماء .

وقد تحدثنا من قبل عن العامل الأول .

* * *

(٣) الصفدى : الوافى بالوفيات .

(٤) انظر :

Laoust (H.); Essai sur les Doctrines Sociales et Politique de Taki-ad-din Ahmad b. Taimiya, Paris, 1939.

أما عن العامل الثاني فإننا نجد أن رجال الحكم والسلطة ومن اتصل بهم ، كانوا يتنافسون في إنشاء المدارس ، وبعضهم كان يبادر إلى هذا فور توليه منصبه الجديد ، يجعله عربونا لدى قومه على حسن السياسة التي سيتبعها في إدارة شئونهم ورعاية صوالمهم . ولست أدات هذا العصر فضل كبير في تأسيس الكثير من المدارس ، ونذكر منهم ، على سبيل المثال ، الخاتون عصمة الدين زوجة السلطان نور الدين محمود ثم ، من بعده ، زوجة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فقد أنشأت مدرسة نفخة في دمشق عرفت باسم المدرسة العصمية . ومن أتباع السلاطين نذكر قايمار صارم الدين ، أحد ممالك السلطان صلاح الدين ، الذي أنشأ مدرسة باسمه بجوار منزله ، كما أنشأ عدة ربط للصوفية في دمشق وفي غيرها من مدن الشام . ومن العلماء نذكر القاضي شرف الدين بن أبي عمرو الذي أنشأ مدرسة باسمه تواجه منزله بدمشق أيضا ، والقاضي الفاضل عبد الرحيم اليبسافي الذي أنشأ مدرسة في القاهرة للشافعية والمالكية وألحق بها مكتبة بلغت عدة كتبها مائة ألف كتاب .

وفي كتاب الدارس في تاريخ المدارس للتعمي ، وفي كتب التراجم كذلك ، أمثلة لا تحصى للتدليل على هذه القضية .

ولم يقتصر اهتمام الهيئة الحاكمة ، ومن اتصل بها ، بحركة الإحياء العلمي على مجرد إنشاء المدارس وإنما كانوا يتخيرون لهذه المدارس أفضل الأساتذة وأتقاهم وأكثرهم قبولا لدى المتعلمين عامة ، بل كانت بعض المدارس تنشأ خاصة لعالم بعينه اشتهر بعلمه أو بمكانته بين الناس . فقد أنشأ ناصر الدين القيمري مدرسة خاصة للأستاذ علي بن محمود الكردي ، وقرر عند إنشائها أن يتولى شئونها بعد وفاة الشيخ الكردي أولاده وذريته . ومن قبل أنشأ السلطان نور الدين محمود دار الحديث التورية للحافظ أبي القاسم هبة الله بن عساكر الكبير محدث دمشق (الذي توفي سنة ٥٧١ هـ) .

وإنشاء مدرسة ما كان يعنى فى نفس الوقت تخصيص أوقاف بعينها يصرف إيرادها فى إدارة هذه المدرسة وفى دفع مرتبات المدرسين والمعيدين وفى حاجات الطلاب الذين كانوا فى أغلب الأحيان يقيمون بالمدرسة ويتغذون فيها ويحصلون منها على أدوات الكتابة والدرس ، بل كان من بين العلماء والطلبة من يتزوج ويقيم مع زوجته وأسرته فى المدرسة التى التحق بها مدرسا أو طالبا . ومما يدل على وفرة الأوقاف المخصصة للدارس ، ما ذكره ابن جبير فى « الرحلة » عن مدينة دمشق التى استغرقت الأوقاف معظم أسواقها ومنشأتها ، وتوزعها المساجد والمدارس والربط . وفى وصفه لإحدى المدارس الحنفية بحلب يقول : « ويتصل به (بجامع قلعة حلب) من الجانب الغربى مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنا وإتقان صناعة ، فيها فى الحسن روضة تجاور أخرى ؛ وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صناعة . ومن أطرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلى مُفْتَسَح كُلهُ بيوتها وغرفاتها طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مشمر عنباً ، فحصل لكل من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متديلاً أمامها ، فيمّد الساكن فيها يده ، ويحْتَنِيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة^(١) . »

ولم يقتصر مورد هذه المدارس على الأوقاف الكثيرة التى كانت تخصص لها ، بل كان للعلماء إقطاعات خاصة يمنحها لهم الأمراء ومرتبات تصرف لهم من خزانة الدولة . ويذكر القاضى الفاضل فى إحدى رسائله إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي . « أن أرزاق أرباب العلم فى دولته ، إقطاعات وراتبا ، يتجاوز ما تبنى ألف دينار ، وربما وصل ثلثمائة ألف شهادة لله^(٢) . »

ومن مظاهر اهتمام الهيئة الحاكمة بالنشاط العلمى ما نقرؤه من أن السلاطين أنفسهم كانوا يهتمون بالأخذ بنصيب من الثقافة بالقدر الذى

(١) الرحلة : ٢٥٣ .

(٢) ميون الروضتين لأبى شامة . مخطوط بالمتحف البريطانى .

ممكنهم منه ظروفهم ، فكان صلاح الدين يتلقى دروس الحديث من القاضي بهاء الدين بن شدّاد ، حتى وهو في ميدان القتال ، كما حاول أن يحفظ القرآن الكريم عندما وجد فسحة من الوقت ، وبدأ هذا فعلا ، ولكننا لا نعلم مقدار نجاح هذه المحاولة ؛ وفي الإسكندرية اعتاد أن يحضر دروس الحافظ السّلفي مع من يصحبه من أولاده ورجال دولته . واهتم العادل سيف الدين بثقافة أولاده حتى قيل إن ابنه الكامل استطاع أن يحصل على إجازات علمية كثيرة من علماء عصره عن جدارة واستحقاق^(١) . كما قيل إنه استطاع أن يعلق على صحيح مسلم عليا ، بكلام مليح^(٢) والكامل هذا هو الذي اعتاد أن يعقد ندوة علمية دورية مساء كل خميس يتناظر فيها العلماء ويتجادلون ويشاركونهم الكامل في جدلهم ومناظراتهم^(٣) . أما المعظم عيسى صاحب دمشق ، وشقيق الملك الكامل ، فقد درس الفقه على مذهب أبي حنيفة في عناية وعمق ، وقد سبق أن ذكرنا رده على والده الملك العادل حينما حاول أن يصرفه إلى دراسة الفقه الشافعي . ويذكر سبط ابن الجوزي أن المعظم هذا اختار مجموعة من العلماء وكاتفهم بدراسة مسائل الفقه الحنفي لإفراد القضايا التي اختص بها الإمام أبو حنيفة وتلك التي تنسب إلى كل من صاحبيه محمد وأبي يوسف ، وكانت نتيجة هذه المحاولة كتابا جديدا في الفقه الحنفي ، سمي التذكرة ، في عشر مجلدات . فدرس المعظم هذا الكتاب بعناية ، وكتب بخط يده على كل مجلد منه عبارة تدل على أنه حفظ ما فيه جميعه . فلفت هذا نظر سبط ابن الجوزي فقال للمعظم : « إن أعظم العلماء حفظا لا يستطيع أن يدعى أنه حفظ أكثر من كتاب القدوري ، وأنت تذكر أنك حفظت كتاب التذكرة جميعه !! إنني أخشى أن يؤخذ هذا عليك . » فنحده المعظم عيسى أن يجمع له من أراد من العلماء ليختبروا حفظه لهذا الكتاب وقال : إن الألفاظ لاتهم ، وإنما الذي يهم هو ما تعنيه هذه

(١) النجوم الزاهرة : ٦ : ٢٢٨ .

(٢) النجوم الزاهرة : ٦ : ٢٢٧ .

(٣) قس المصدر : ٦ : ٢٢٢ .

الإنفاذ^(١) . واهتم المعظم كذلك بقواعد اللغة العربية لحفظ كتاب
 « المفصل » ، للزحشرى ؛ وكان يشجع على الحفظ والدراسة بما يقدمه من
 مكافآت مالية فن ذلك قوله : « من حفظ الجامع الكبير للكرمانى أعطيته
 مائة دينار ، ومن حفظ الإفصاح لأبى على فى النحو أعطيته مائتين » . لحفظهما
 جماعة ووفى لهم^(٢) . وعندما كتب سبط ابن الجوزى ترجمة المعظم عيسى
 فى حوادث سنة ٦٢٤ قال : « وفى هذه السنة ظهرت وفاة المعظم عيسى
 الملك الفقيه النحوى اللغوى الخ .

ولأمراء الأيوبيين نشاط آخر فى ميدان المعرفة ذلكم هو التأليف
 والتصنيف . فقد كتب المعظم عيسى كتابا فى الفقه الحنفى ، كما نظم مجموعة
 قيسمة من الأشعار جمعها فى ديوان خاص . وألف الناصر داود كتابه
 « الفوائد الحلبية فى الفرائد الناصرية » ، وخصص فيه فصلا يتحدث فيه عن أصل
 الأسرة الأيوبية . وينقسم هذا الكتاب قسمين : أولها يشمل الرسائل
 والمكاتبات التى وجهها الناصر داود إلى بعض الشخصيات الرسمية وغيرها ،
 وثانيها يحتوى الأشعار التى أنشأها مؤلفة فى عشرة أبواب^(٣) . وكتب
 المنصور محمد صاحب حماة كتابا عن تاريخ حماة والشخصيات التى زارتها
 أو استقرت فيها ، ويقع هذا الكتاب فى جزئين ، وقد سماه صاحبه :
 « المضمار فى التواريخ »^(٤) .

وهكذا نجد أمراء الأيوبيين يسهمون فى حركة الإحياء العلمى بطريق
 مباشرة بالتأليف والدراسة إلى جانب ما ذكرناه من قبل من مظاهر اهتمامهم
 بهذه النهضة .

* * *

(١) مختصر مرآة الزمان : ٤٢٦ — ٤٢٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) وهو مخطوط بالمتحف البريطانى برقم Brit. Mus., or 3027 .

(٤) أبو شامة : اللبيل على الروضتين : ١٢١ ، سبط ابن الجوزى : مختصر المرأة :

٤٠٦ — ٤٠٧ .

ويعتبر العامل الثالث الذى يرجع إليه الفضل فى هذه الحركة الإحيائية للعلوم ، فى جماعة العلماء . وطبعى أن تؤدي هذه الجهود العظيمة التى قامت بها الهيئة الحاكمة ومن اتصل بها فى إنشاء المدارس ، وتخصيص الأقاليم الغنية للإنفاق عليها ، والاهتمام بتشجيع الدراسات بوسائل مختلفة ، وتثقيف أمراء الأسرة الحاكمة ، والمساهمة فى حركة التأليف — طبعى أن تؤدي هذا كله إلى تكوين هيئة ضخمة من العلماء والأساتذة لسد حاجة المدارس المتزايدة إلى المدرسين والمثقفين . وطبعى كذلك أن تؤدي هذه الحركة التثقيفية الواسعة إلى تخريج عدد كبير من هؤلاء العلماء . ويتبين ضخامة عدد هذه الهيئة التعليمية من عبارة ذكرها الهامد الكاتب فى مناسبة معينة عن مدينة دمشق عندما قال « إن الصنّى فرق فى أساتذة المدينة ستائة دينار ، فخص كل عالم دينار واحد^(١) » .

والواقع أن كتب التراجم التى تعرض للحقبة التاريخية التى تحدث عنها تدلنا على أن هذا العصر كان حافلاً بالشخصيات العلمية العظيمة .

وتبين الدراسة الدقيقة لهذا العصر أن الظروف التى سيطرت على جوه العام جعلت أساس الحكم فيه مستنداً إلى دعائمين قويتين متعاوتين ، وإن اختلفت طبيعة كل منهما عن الأخرى ، إحداهما : طبقة أمراء الإقطاع ، وفيهم تركيز النشاط الحربى وإدارة معظم شئون الإقطاعات والولايات المحلية فى ضوء السياسة العامة للدولة ، وكانوا يمدّون الخزانة العامة بما يفرض عليهم من أموال ؛ وثانيتهما طبقة العلماء ، وهؤلاء لم يكونوا أقل أهمية للدولة من أمراء الإقطاع ، ذلك أنهم بنفوذهم المباشر على العامة وثقة الرأى العام فيهم وتقديره لهم كانوا يستطيعون تعبئة القوى وتجميع الصفوف لتأييد الدولة أو لمناهضة الأمراء الذين ينحرفون عن الطريق السوى فى إدارة شئون إمارتهم . ولم يقتصر أثرهم فى استقرار الأمور أو فى اضطرابها على تأثيرهم فى الرأى العام ، وإنما كان لبعض الشخصيات القوية

(١) الفتح القدسى ، ٤٨١ — ٤٨٢ .

منهم أثر مباشر فى قوة الدولة أو فى الحد من جبروت السلاطين وطغيان الأمراء . فهذا هو القاضى عيسى الهككارى يصحب جيوش أسد الدين شيركوه ، قائد نور الدين إلى مصر ، ويبقى فيها بعد تمام الفتح . وعند وفاة شيركوه ، الذى شغل منصب الوزارة للفاطمين نحو شهرين ، وقع الاختيار على ابن أخيه صلاح الدين ليتولى الوزارة بعده ، كما تقرر أن يقود جيوش نور الدين بمصر ؛ فغضب كثير من قواد الجيش وأمرائه الذين كانوا أسنّ من صلاح الدين وأقدم منه صلة بنور الدين ، وفى هؤلاء الثائرين شهاب الدين الحارمى خال الوزير الجديد ؛ فتقدم القاضى الهككارى لعلاج الموقف بحكمة وسياسة ، ونجح فى جمع الكلمة حول صلاح الدين فتولى المنصبين جميعاً ، واكتفى من بقى على معارضته لصلاح الدين بالعودة إلى الشام . وواصل الهككارى بعد ذلك جهوده لخدمة صلاح الدين وصحبه فى إدارة شئون مصر وصحبه فى المعارك حتى مات فى مخيمه قريباً من قلعة الخروبة ، المطلة على سواحل عكا ، سنة ٥٨٥ هـ . ومن علماء الشام كان الإمام الفندلاوى يتقدم صفوف القتال ضد الصليبيين ومات فى ميدان المعركة . وكان الشيخ عبد الله اليونينى الحنبلى يخرج للحرب مع المجاهدين بقوسه الذى يزن ثمانين رطلا ، ويقول المترجمون لحياته إنه لم يتخلف عن معركة واحدة .

وفى الميدان الإدارى قام العلماء بنصيب كبير لخدمة الدولة . فهانئ أولاء نجد القاضى الفاضل وعماد الدين الأصفهاني وبهاء الدين يوسف بن شداد يسوسون البلاد لصلاح الدين الأيوبي ويتولون أهم المناصب الحكومية فى عهده ، حتى كان الفاضل يده اليمنى فى ميادين السياسة والحرب والاقتصاد والإدارة ، بل كان مستشاره الأول فى شئونه العائلية الخاصة . وابن الأثير الجزرى كذلك يتولى الوزارة للملك الأفضل ، ابن صلاح الدين ، صاحب دمشق ؛ وصفى الدين بن شكر يتولاها للملك العادل ولابنه الملك الكامل كذلك . وفى مناسبة معينة يقرر نور الدين محمود إنشاء مسجد كبير فى حلب

فيعهد بالإشراف على عمارته وبالإيفاق عليه من خزانة السلطان إلى الشيخ عمر الملا^١. ويعترض فريق من رجال نور الدين ، من المدنيين والعسكريين ، على هذا الاختيار ، فللشيخ ميدانه الذى لا ينازعه فيه أحد وهو ميدان العلم والقيادة الدينية ، أما الإشراف على العمارة والصرف فليس من اختصاصه ولا هو فى طاقته ؛ فيرد نور الدين اعتراضهم بأن الشيخ يخاف الله ولهذا فإن نقود المسجد لديه فى أمان وحسن رعاية ، لن يلحقها اختلاس أو انتقاص .

وهكذا نجد العلماء لا يقصرون جهودهم على ميادين العلم وإنما يؤكدون نفوذهم فى الإدارة وفى السياسة وفى الحرب بقوة شخصيتهم وبقيادتهم الموجهة للرأى العام . وقد توصل « لاوست » بدراسته لموقفهم هذا إلى أن نفوذهم كان يتزايد بالتدرج فى عصر الأيوبيين فهد هذا لسيطرتهم المتحركة أيام المماليك ، ومن مظاهر سيطرتهم عندئذ أن كل رسالة سياسية إلى الفرنج أو إلى بركة خان كانت تشمل واحدا من العلماء على الأقل . ويذكر « لاوست » ، كذلك أن ابن تيمية أحس بخطورة هذا الموقف فحاول بدراسته الإصلاحية الاجتماعية أن يخلص الإدارة الحكومية من الأمراء المتجبرين ومن العلماء الذين شاركهم فى هذه الأرستقراطية الحكومية وأن يخضع الجميع للقانون الإسلامى الاجتماعى الذى يصبح العلماء فى ظله فى مكانة المرشدين فقط^(١) .

على أن انصراف كثير من العلماء ، فى هذا العصر ، إلى شئون الإدارة لم يصرفهم ، وغيرهم من بقية العلماء عن ميدان المعرفة الذى تخصصوا فيه بل إنهم كانوا يستغلونه أحيانا لإصلاح شئون الدولة والحكم بطريق مباشرة تارة وبغير ذلك تارات أخرى . فقد ألف ابن شداد كتابه « فضائل الجهاد » للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وجمع فيه الأحاديث التى تحث على الحرب وجهاد الكفار ، يشجعه بذلك على موصلة حربه ضد الصليبيين حتى ينجح

Laoust (H.), *Essai sur les Doctrines Sociale et Politique* (١)
de Taki-d-din Ahmad b. Taimiya, Paris, 1939.

فى طردهم نهائيا من بلاد الشام . وألف ابن الأثير ، صاحب الكامل ، كتابه « تاريخ أتابكة الموصل » وأهداه إلى السلطان الصغير القاهر مسعود صاحب الموصل تذكاراً له بالأجاد التى كانت لأبائه أمراء الموصل ، وحشاً له على أن يعمل على سلوك سيبلهم . وألف أبو شامة « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » تمجيداً لنور الدين وصلاح الدين ، وتوجيها لأمراء عصره الذين فشا بينهم الخلف والشقاق ، حتى يقتدوا بسيرتهما ويعرضوا عما هم فيه من حروب ومنازعات فرقت كلتهم وأطمعت أعداءهم وإنما خص أبو شامة نور الدين وصلاح الدين بالتأليف لأنهما « فى المتأخرين كالعمرين رضى الله عنهما فى المتقدمين » فأفردهما فى كتاب « لعله يقف عليه من الملوك من يسلك فى ولايته ذلك السلوك فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين ، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين ، ويقولون : نحن فى الزمن الأخير ، وما لأولئك من نظير . فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو فى عصرهم ، من بعض ملوك دهرهم ^(١) . »

وكان لبعض العلماء نفوذ شخصى لدى السلاطين والأمراء . ويكفيها هنا أن نذكر من الأمثلة الشيخ سبط ابن الجوزى فقد نجح فى حث الملك الأشرف موسى على حمل السلاح والتقدم بجيوشه إلى مصر لمساعدة صاحبها أخيه الملك الكامل ضد الصليبيين الذين هاجموا دمياط واستقروا بها سنة ٦١٨ هـ ؛ وكان المعظم عيسى صاحب دمشق وشقيق الملكين قد فشل فى جمع قوى هذين الملكين من قبل . أما الملك الأجدد الأيوبى صاحب بعلبك فكان يزور الشيخ عبد الله اليونانى الذى لم يكن يحفل باستقباله ولم يقيم أبداً لتحيته ، بل كثيراً ما لامه على مظالمه وكان الأجدد يعتذر إليه وبعده بالاصلاح . وقد نجح الشيخ اليونانى هذا فى دعايته ضد القراطيس السود العادلة التى طرحت للتداول بدلا من الدراهم والدنانير فبطل العمل

(١) كتاب الروضتين : ١ : ٥ . نشر وتحقيق دكتور محمد حلمى محمد أحمد ؛ لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة - ١٩٥٦ .

بها^(١) . وكان المعظم عيسى صاحب دمشق يمشى من القلعة راجلاً إلى دروس الإمام تاج الدين أبو الين الكسندى تكريماً له ولعلمه ، وحدث أن دخل مرة على التاج « فسكت الحاضرون ، فقال التاج : إنما سكتوا لأجل السلطان ولم يفرغوا من حزبهم . فقال المعظم : لا والله ، إنما القراءة بالنسوبة فليتموا » . أما الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقد نظم على الصالح اسماعيل ، صاحب دمشق ، لاستعانتة بالفرنج ضد منافسيه من أمراء الأيوبيين حتى إنه قدم لهم مدينة صيدا عربوناً لصداقته . فأسقط العز اسم الصالح اسماعيل من الخطبة يوم الجمعة ، وأيده في هذه الخطوة الشيخ جمال الدين بن الحاجب إمام المالكية . ثم لم يلبث عز الدين أن خرج عن دمشق إلى مصر فأقام بها حتى توفي سنة ٦٦٠ . وعند وفاته قال الظاهر بيبرس ، صاحبها : « اليوم استقر ملكي لي ؛ فلو أمر عز الدين في شأنى الناس بما أراد لأطاعوه مبادرين » .

وكان للنساء نصيب فى النشاط العلمى فى هذا العصر أشرنا إلى بعضه فىما تقدم عندما ذكرنا أنهم كن ينشئن المدارس الخاصة للصبيان ولدراسة الحديث وللبذاهب الفقهية المختلفة . ونود هنا أن نذكر أنه ظهر من بين السيدات من اشتهرت بالتفوق فى فن معين من فنون المعرفة فىها هى ذى شهيدة الكاتبة تكتسب شهرة فائقة لتخصصها فى دراسة الحديث وعلومه حتى أصبحت تعد من كبار رواة وحفاظه ؛ وتلك أخرى اسمها ست الكتبة نعمة بنت على اهتمت بدراسة الحديث كذلك وتخصصت منه فى كتاب الشمائل للترمذى .

* * *

وفى الحديث عن مواد الدراسة ذكرنا أنها تركزت حول العلوم الدينية طبقاً للذهب السنى أما الدراسات اللغوية والعربية فكانت تعتبر مساعدة

(١) المغيل على الروضتين : ١٢٠ .

على تفهم العلوم الدينية ؛ ودراسة الأخبار أو التاريخ لم تكن أكثر من مادة ثقافية تكميلية ، ومع هذا فقد التمس دارسوها لها صلة قريبة أو بعيدة بالدراسات الدينية ، فهذا أبو شامة صاحب الروضتين قد أقبل على دراسة التاريخ في مرحلة متأخرة من حياته الدراسية بعد أن قضى جل عمره في اقتباس الفرائد الدينية . وهو إنما قرر أن يصرف إلى التاريخ بعض وقته « ليحوز بذلك سنة العلم وفرضه ، اقتداء بسيرة من مضى من كل عالم مرتضى » .

أما المنهج التفصيلي للدراسة فكان يختلف بالنسبة لأعمار الدارسين . فصغار الطلاب أو المبتدئون كانوا يحفظون القرآن ويدرسون قراءاته المختلفة . ويتعلمون الشعر وأيام العرب وأخبارهم مستعينين بها على تعلم الكتابة ، ذلك لأنهم كانوا يحفظون القرآن تلقينا صيانة لكلام الله عن التصحيف والتحريف على يد هؤلاء الصبيان الصغار . وطريقة الإملاء والاستماع في بقية المواد كانت مفضلة على طريقة النقل في هذه الحقبة ، وبخاصة في دراسة الحديث ، ذلك أن طريقة النقل والنسخ كانت تؤدي أيضاً إلى التصحيف والتحريف . وفي ذلك يقول ابن عساكر ، محدث دمشق الأكبر ، مفضلاً طريقة الإملاء :

ألا إن الحديث أجلّ علم	وأشرفه الأحاديث العوالى
وأنفع كلّ يوم منه عندي	وأحسنه الفوائد والآمالى
وإنك لن ترى للعلم شيئاً	يحققه كآفواه الرجال
فكن يا صاح ذا حرص عليه	وخذه من الرجال بلا ملال
ولا تأخذه من صحف فترمى	من التصحيف بالداء العضال

ولهذا نجد معظم الإجازات العلمية التي كانت تمنح للطلبة من أساتذتهم مصدرة بعبارة : سمع مني ، أو قرأ عليّ ، أو نحو ذلك .

أما كبار الطلاب فقد رأينا أن العلم يُسرّ لهم في دور الحديث وفي

المدارس المختلفة بعد الفراغ من حفظ القرآن ودراسة قراءاته ، لكنهم لم يكونوا يقيدون بمنهج معين يتبعونه في دراساتهم بعد اجتياز هذه المرحلة الأولى ، بل كانوا يختارون من المواد ما يناسبهم ومن الكتب ما يرغبون فيه وهم في هذا الاختيار تأثروا إلى حد كبير بواحد من اثنين : أولها شخصية من الشخصيات البارزة في الميدان العلمي ، تميزت بتقواها وصلاحتها وبعلمها الغزير وبتمكنها من المادة التي تخصصت فيها أو في الكتاب الذي تعرضت لدرسه وشرحه ؛ وثانيها وفرة الأوقاف المخصصة لطلاب العلم في مدرسة بعينها . ومعنى هذا أن الطالب كان لا يهتم ، إلا في حالات قليلة ، باختيار علم بذاته ليتخصص في دراسته لشغفه به أو لرغبته الخاصة في الوقوف على أسرارِهِ . ولهذا أيضاً وجدنا العلماء في هذه الحقبة يجمعون أنواعاً مختلفة من الثقافة والمعرفة لا يتخصصون في فن بعينه كما يتبين من كتب التراجم المختلفة .

لكنّ هذا لا يعنى أن التخصص العلمي قد انقطع تماماً ، إذ أننا لا زلنا نجد من بين العلماء حينئذ بعض المتخصصين المبرزين ، ومنهم ابن عساكر الكبير الحافظ هبة الله محدث دمشق ، وتخصّصه دراسات الحديث ، وإن كان قد برع في فقه الشافعي وكتب التاريخ . وعلم الدين السخاوي في القراءات ؛ وزين الأمان ابن عساكر في فقه الشافعية ؛ وعبد الله اليونيني في فقه الحنابلة ، وأبو اليمن تاج الدين الكندي في علوم العربية .

ومن هؤلاء المتخصصين من اشتهر بإتقانه تدريس كتاب بعينه ، وهو نوع من المبالغة في التخصص . ومن أمثلة هؤلاء علم الدين السخاوي المقرئ الذي تخصص في قصيدة الشاطبي فشرحها ، ثم جاء أبو شامة الذي تلبذ على السخاوي فزاد هذه القصيدة شرحاً بعد أن لزم صحبة السخاوي زمناً طويلاً . ومنهم كذلك ست الكتبة نعمة بنت علي التي تخصصت في كتاب الشمائل للترمذي ، وأبو اليمن تاج الدين الكندي الذي تخصص في كتاب المفصل للزحشرى .

ولعل السر في قلة الانصراف إلى التخصص العلى بصورة ملحوظة في هذا العصر الذى نتحدث عنه أن الحركة العلمية بدأت ، واستمرت مدة طويلة ، قوية مندفعة متحمسة لمقاومة الدراسات الفلسفية والمنطقية التى كانت وسائل الدعاية الشيعية ، والاسماعيلية خاصة ، واستندت هذه الحركة القوية إلى الدراسات النقلية التى تعتمد على القرآن والحديث وعلى آراء أئمة الفقه القدامى الذين وضعوا أسس الدراسة السنية . ومن وراء هذه الحركة الأمراء والحكام ومن اتصل بهم يتنافسون فى إنشاء المدارس وفى تخصيص الأوقاف العظيمة الدخل للإنفاق على هذه المدارس وفى تقريب العلماء واستشارتهم فى شئون الدولة إدارة وسياسة وحربا واقتصادا .

محمد ملى محمد احمد